المشكلات النظرية والمنهجية للبحث السوسيو-إثنوجرافي في المجتمعات المتخيلة

محمد محيي الدين*

ملخص: تسعى هذه الدراسة إلى تطوير بعض المقترحات النظرية والمنهجية لدراسة العوالم الاجتماعية التي يبنيها الناس على شبكات «الكمبيوتر». وتؤكد الدراسة أن هذا المصطلح لا يزال إشكالياً، ويتطلب التوصل إلى تعريف مقبول لمعنى كلمة مجتمع. وتتناول الدراسة قضايا البحث الاجتماعي في نظم الاتصال الإلكتروني مثل قضية الكم مقابل الكيف، وتشير إلى ضرورة الاهتمام بدراسة علاقات القوة والمكانة ومدى ما يسود العلاقات على الخط من تكافؤ مقارنة بعلاقات الوجه للوجه. وتناقش الدراسة أيضاً بعض المشكلات المنهجية للتجارب المعملية وبناء الزمن وتأثيراته على النتائج البحثية في مجال الاتصال الإلكتروني مثل الإغراق في المحلية وصراع الأدوار، وتنتهي إلى أنه يتعين علينا أن نأخذ بعين الاعتبار محاولة الكشف عن ديناميات التطور الوئيد لثقافة ومناخ اجتماعي متميز وفهم هذه الديناميات. وتناقش الدراسة بعد ذلك بعض المشكلات الأخلاقية للبحث في المجتمعات المتخيلة مثل قضية الخصوصية الفارق بين ما هو عام وما هو خاص على الخط، وتعرض المواقف الفكرية المختلفة من هذه القضية. وتوضح الدراسة، بالإضافة إلى ذلك، الخصائص التي يتعين توافرها في برامج الحاسوب التي يمكن لها أن تفي بمتطلبات التحليل الكيفي للتفاعلات على الخط.

المصطلحات الأساسية: المجتمعات المتخيلة، المرونة التفسيرية، الاتصال على الخط، البحوث الكيفية في مقابل الكمية، أخلاقيات البحث في الاتصال على الخط، برامج الكمبيوتر لتحليل البيانات الكيفية.

* أستاذ علم الاجتماع – جامعة المنوفية – مصر.

مقدمة:

تكشف أنظمة الاتصال عبر أجهزة الكمبيوتر عن قدر لا بأس به من المرونة التفسيرية Interpretative Flexibility، ونقصد بالمرونة التفسيرية أن هذه الأنظمة يمكن أن تعني أشياء مختلفة للأفراد والجماعات الاجتماعية المختلفة. وهي بذلك، تفسر ويعاد تفسيرها مرة تلو أخرى عبر بعد المكان وعلى مدار الزمن (Croft et al., 1994). ومن المعروف جيداً أن شبكة الإنترنت قد ظهرت إلى حيز الوجود، في الأصل، بوصفها مشروعاً عسكرياً تشرف عليه وكالة مشاريع أبحاث الدفاع المتقدمة Defense Advanced Research Project Agency (DARPA). وقد أنشئت هذه الوكالة إبان فترة الحرب الباردة لتؤدي دور نظام معلومات قادر على مواجهة هجوم نووي سوفيتي (Miller, 1996). وأسهمت هذه الخصائص – اللامركزية والمرونة – التي جعلت من هذا النظام نظاماً غير قابل للانهيار تحت وطأة أي هجوم عسكري يتعرض له في وضع شبكة الإنترنت بين أناملنا اليوم؛ إذ إن هذه الشبكة ما هي إلا «بازر» دولي مزدحم يرتاده مختلف أشكال البشر.

ونظراً لهذه المرونة التفسيرية التي تتمتع بها شبكات الكمبيوتر، فقد أخضعها الباحثون الأكاديميون للدراسة من منظورات متعددة وبأساليب منهجية متباينة. فعلى سبيل المثال، هناك تحليلات وصفية (إثنوجرافية) لأماكن متخيلة بعينها (Baym, 1992; Myers, 1987; Reid, 1995)، وثمة دراسات تقويمية للأبعاد التنظيمية بين الشبكات (Danowski & Edison-Swift 1985; Sproull & Kiesler 1986; Rice, 1982)، في حين قارن بعضها في إطار التجربة المعملية بين اتصالات الوجه للوجه والاتصالات الإلكترونية (Dubrovsky et al., 1991)، وأخضعها بعضها الآخر لتفسيرات تأويلية Hermeneutic (Lee, 1994)، ومسوح إلكترونية (Mohieddin, 2003; Parks & Floyd, 1996). ومن ناحية أخرى، ركزت موجة من الدراسات على تحليل الأبعاد المعيارية والقانونية (Maltz, 1996; Mnookin, 1996)، ودراسات النوع الاجتماعي الخلاقة (Danet, 1996; Jaffe et al., 1995; Matheson, 1992) وغيرها. ومع أن ابتداع تصنيف دقيق للبحوث حول أنظمة الاتصال عبر أجهزة الكمبيوتر يكاد يكون مستحيلاً، فمن الممكن أن نلاحظ أن دارسي القضية قد تحولوا أخيراً من توجه مبكر للبحوث تميز بالتركيز على دراسات اتصالات الأعمال إلى تبني مقاربات أكثر حساسية للأبعاد الرمزية والثقافية (Jones, 1995a; Lea & Spears, 1993; Mantovani, 1996; Sudweeks et al., 1997).

ويعد مفهوم المرونة التفسيرية ذاته بمنزلة حجر أساس لذلك المنظور الذي ينهض على النزعة التصورية الاجتماعية Social Constructivism، التي لا تعد مجرد اتجاه لدراسة التكنولوجيا فقط (Croft et al., 1994; Bijker, Hughes & Pinch, 1987)، بل هي أيضاً بمنزلة اتجاه ابستمولوجي أكثر رحابة ظهر إلى حيز الوجود كرد فعل لمنهج النزعة الإمبيريقية المنطقية ورهانها على تطبيق إطارها المرجعي في نطاق العلوم الاجتماعية (Shwandt, 1994). ويرجع الجذر الفلسفي لهذا التوجه إلى التقاليد الفينومينولوجية لألفرد شوتز، والبرنامج الفلسفي لجورج هربرت ميد، وعلم الاجتماع الصوري عند جورج زيمل. وتدعي النزعة التصورية الاجتماعية أن حقائق الوجود ليست مستقلة عنا بوصفنا ملاحظين، وأن المعرفة العلمية هي دائماً نتاج لمنظورات مؤطرة. فالناس يخلقون عوالمهم الخاصة من خلال عملية تحدث مراراً وتكراراً يكون فيها الإنسان مُنتِجاً ونتاجاً للعالم الاجتماعي في آن معاً (Berger & Luckmann, 1996).

ولا يمكن لأي شخص يألف أنماط الحياة التي تحدث عبر الأحاديث المتبادلة على شبكة الإنترنت على برامج مثل MUD و MOO (Bruckman, 1993; Reid, 1995; Marvin,1995; Mnookin, 1996;) وشبكة يوزنت نيوز جروب (Baym, 1992; Mclaughlin et al., 1995;) أو على نظام BBS (Myers, 1987) أن يفشل في أن يلاحظ أن الحيز السيبرنطيقي Cyberspace يمثل نموذجاً رائعاً للأساليب التي يؤسس من خلالها الناس علاقات شخصية ومعايير اجتماعية واقعية وذات معنى على الرغم من غياب وسيط مادي قابل للمس. واستناداً إلى ذلك، وضعت نظريات التلميح الاجتماعي المختزل Reduced Social Cues في نظم الاتصال الإلكترونية (Dubrovsky et al., 1991; Sproull & Kiesler, 1986) موضع التساؤل من قبل عدد من الدراسات ذات النزعة التصورية الاجتماعية (Baym, 1995; Lea & Spears, 1995; Mantovani, 1994; Myers, 1987; Walther, 1992). ويشترك هؤلاء جميعاً في الادعاء بأن وسائل الاتصال التي تحدد بوساطة الأحرف التي تطبع على لوحة مفاتيح الكمبيوتر لا تحول دون بناء المستخدمين لصياغات تصورية اجتماعية خاصة بهم عن العوالم الاجتماعية. فالعوالم الاجتماعية، حتى في إطار الحيز السيبرنطيقي، تتسم بدرجة بالغة التعقد، ولا يمكن أن تحدد خصائصها الأساسية بوساطة أية ملامح داخلية لوسيط الاتصال: فالعلاقات على شبكة الإنترنت يمكن أن تكون أكثر ديموقراطية أو أقل، وغير مقيدة أو أكثر مساواة مما يكون عليه الأمر في الحياة الواقعية، كما أنها تعتمد على نمط من العناصر المتداخلة. والواقع أن أنصار

النموذج الاجتماعي لتراجع الهوية الفردية (Social Identity De-individuation (SIDE) Spears & Lea, 1992; 1994) قد أوضحوا أنه في ظل ظروف معينة يمكن للسلوك الاتصالي المباشر على الخط On Line أن يكون ذا طابع اجتماعي ومعياري أكثر من علاقات التفاعل وجهاً لوجه.

وتسعى هذه الدراسة إلى تطوير بعض المقترحات المنهجية لدراسة العوالم الاجتماعية التي يبنيها الناس على شبكات الكمبيوتر. فقد أصبح مصطلح **المجتمعات المتخيلة**، أخيراً، مصطلحاً شائعاً، وسوف يستخدم في هذه الدراسة بوصفه استعارة تيسر الإشارة إلى تلك الأنماط المتمفصلة من العلاقات والأدوار والمعايير والنظم واللغات التي تطور بوساطة الأفراد خلال عمليات الاتصال المباشر على الخط. وينبغي ألا يفهم من ذلك أننا نذهب إلى القول بأن مصطلح المجتمعات المتخيلة ينطوي على قيمة إيجابية في حد ذاته، ولا أننا ندعو إلى وجهة نظر متحمسة أو متفائلة أو نتبناها، فيما يتعلق بشبكات الاتصال عبر الكمبيوتر. فالواقع أن أصالة هذه المجتمعات التي تطور على الخط ينبغي ألا تقبل على علاتها دون محاولة التوصل إلى تعريف مقبول، بصفة عامة، لمعنى كلمة مجتمع Community. ولذلك، فإن مصطلح المجتمعات المتخيلة لا يزال مصطلحاً علمياً إشكالياً (Jones, 1995b; Mclaughlin et al., 1995). وعلى أية حال، فإن المجتمعات المتخيلة جديرة بعناء دراستها حقاً عندما لا ننظر إليها بعين رومانسية. على أنه، ودون النظرة الإثنوجرافية، كما يذهب جيرتز (Geertz, 1973) «فإن الإنسان ليس إلا حيواناً معلقاً في شباك للمعنى قام هو ذاته بغزلها» ومن ثم، تتلخص مهمة الباحث في أن يطور وصفاً مكثفاً Thick description لهذه الشبكات.

ويتطلب القيام ببحوث سوسيو/إثنوجرافية حول المجتمعات المتخيلة اللجوء إلى أدوات بحثية مختلفة عن تلك التي اعتمدت عليها دراسات التقويم التنظيمي للأعمال التي يتوافر عنها بالفعل تراث منهجي متميز (Kerr & Hiltz, 1982; Rice, 1982). فقد يعني تأكيد البعد المجتمعي المتخيل لمؤتمر على سبيل المثال، تركيز الانتباه على الذوات التي تؤدي دوراً فاعلاً كمرسلات ومتلقيات (وفي العادة كلاهما) للرسائل الإلكترونية. ويعد هذا إيضاحاً مهماً نظراً لوجود وجهات نظر أخرى. وعادة ما يكون مجمل قراء مؤتمر إلكتروني أكبر من عدد المشتركين الفعليين فيه؛ فمؤتمرات الكمبيوتر تعد بالنسبة لبعض الناس مصدر معلومات ذا اتجاه واحد. وثمة عدد محدود (سوف يكون من المثير أن نحدد من هم هؤلاء) ينظرون بقدر من الجد إلى

المؤتمر بوصفه بيئة اجتماعية يكونون من خلالها أصدقاء، ويصنعون أعداء، ويصوغون في إطار ذلك كله هويات متميزة على الخط.

وعلى حين ارتبطت أهداف العديد من الدراسات المبكرة لنظم الاتصال الإلكترونية بتعرف تأثير تكنولوجيا الاتصال الجديدة على كفاءة الأوامر في بيئة العمل، فإن تفسير أصحاب النزعة التصورية الاجتماعية للمجتمعات المتخيلة يمكن أن يصبح أكثر قرباً لدراسة الحياة اليومية. وهكذا، من خلال فهم أشكال التفاعل الاجتماعي على الخط، يمكن لنا أن نأمل في التوصل إلى فهم أفضل لتعقد خبراتنا الاجتماعية اليومية.

قضايا البحث الاجتماعي الأساسية في نظم الاتصال الإلكتروني

هل تعد قضية الكم في مقابل الكيف مشكلة حقيقية؟

على الرغم من التطورات المحدثة التي طرأت على الأساليب المنهجية التي تستخدمها العلوم الاجتماعية والحنكة التي تكسو الحوارات الابستمولوجية لما بعد الحداثة، فإن واحداً من أوائل الأشياء التي لا يزال معظم الناس يرغبون في معرفتها عندما يشرع شخص ما في الحديث عن البحث الاجتماعي هو هل المتحدث ميال إلى المناهج الكمية أو الكيفية؟ ولقد تحكمت هذه المقابلة ما بين الكم والكيف في التصورات البحثية حول البشر على مدار القرن الماضي بأكمله. وأفضى ذلك إلى نشأة مدارس منهجية ورؤى متعارضة للعالم. ومن الممكن لهذه الازدواجية المنهجية أن تظل قائمة في بحوث الاتصال الإلكتروني. على أن ما سوف أذهب إليه في هذه الدراسة هو أن الاتصال الإلكتروني يعد فرصة سانحة لتأسيس ميدان بحثي يمكن له، بحكم خصائصه الداخلية النوعية، أن يتجاوز التفرقة التقليدية بين الكم والكيف، وأن يطور في الوقت ذاته منظورات جديدة للتحليل الاجتماعي.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نشير إلى أن العديد من أوجه القصور التي تعزى إلى البحوث الكمية تعود في الواقع إلى ممارسات بحثية بعينها: منها الاتهام الشائع الذي يذهب إلى القول بأنه عندما يقوم الباحث بعقد مقابلات مع المبحوثين باستخدام استبانات مقننة فإنه يفتقر بذلك إلى توصيف إثنوجرافي للسياق، وهو الأمر الذي يعد ضرورياً لفهم الإجابات التي حصل عليها (Cicourel, 1974)، أو الشعور الشائع بأن الباحثين ذوي الاتجاهات الكمية يفترضون أن تحليل عدد كبير من الحالات سوف يكشف تلقائياً عن فهم واضح للظاهرة موضوع الدراسة، على الرغم مما قد يعتري عملية المعاينة من تحيز (Schwartz & Jacobs, 1979).

بعبارة أخرى، فإن المقابلة بين الكم والكيف عادة ما تنم عن القلق المشروع من احتمال أن يتبنى الباحثون نماذج نظرية مفرطة في بساطتها حول الواقع الاجتماعي ويغفلون في الوقت ذاته المعنى الذي يضيفه الفاعل على الموقف. ومع ذلك، فإن فكرة العلم الاجتماعي التفسيري، الذي يلجأ إلى استخدام المناهج الإحصائية بقدر من الحذر ما دام ذلك ملائماً، ليست جديدة كل الجدة: فقد دعا ماكس فيبر ذاته إلى تبني مقاربة ابستمولوجية لا ترفض رفضاً مسبقاً اللجوء إلى استخدام المقاييس الكمية، حيث يمكن لكل من الفهم السببي والفهم التفسيري أن يدعم أحدهما الآخر (Weber, 1949). وربما يذكرنا هذا العالم الكلاسيكي بأنه ليس هناك في الواقع حاجة إلى أن نسخر من فكرة الكم في الوقت الذي ينبغي أن توجه فيه سهام نقدنا نحو الوهم الوضعي القائل بإمكانية التوصل إلى جوهر محدد ودقيق على غرار ذلك السائد في العلوم الطبيعية للواقع الاجتماعي. لقد ارتبطت المناهج الكمية والكيفية عادة برؤى متنافية بعضها مع بعض للمجتمع والعلوم الاجتماعية، وليس هناك من شك في أن المناهج الكمية قد شجعت على نبذ الممارسات اللاوضعية في العلم الاجتماعي. وعلى حين أن مثل هذه الرؤى المتنافية لا تزال قائمة إلى اليوم، فإنني لست متأكداً تماماً من صحة التفرقة المفرطة في بساطتها بين الكم والكيف. وربما تكمن الحكمة في أن نظهر قدراً من التسامح وأن نكون انتقائيين دون خجل في استخدامنا لمناهج أو أدوات البحث (Rossman & Wilson, 1994).

ويمكن لأفكار فيبر التي لا تزال مهمة إلى يومنا هذا أن تعلمنا دروساً أخرى: فمثلما قد يفضي النزوع الكمي الميكانيكي الكثيف بالباحثين إلى الانحراف عن جادة الصواب في دراستهم للظواهر موضع اهتماماتهم، فإن التطبيق الساذج لمفهوم الفهم Verstehen لا بد أن يتجنب؛ ففهم معنى الواقعة لا ينطوي على عملية توحد وجداني بها أو الاقتحام السيكولوجي لعقل شخص ما. لقد رفض فيبر هذه التفسيرات الرومانسية للفهم كما فهمها فلاسفة القرن الثامن عشر الألمان، وعلى وجه الخصوص فيلهم ديلتاي، الذي كان قريباً في فهمه لها لمفهوم الإحساس بالانفعالات Fuhlen. لقد كان مفهوم الفهم عند ديلتاي ينطوي أيضاً على فهم ينهض كلية على «ميكانيزمات» بدهية وآنية. والواقع أن فهم فيبر أقل رومانسية من ذلك، كما أنه كان يرتكز على إنجاز إعادة صياغة مفاهيمية تدريجية من خلال تحليل النصوص والوثائق.

وبناء عليه، فإن البحوث التفسيرية المعمقة حول المجتمعات المتخيلة يمكن لها أن تلقى دعماً كبيراً من خلال الاستخدام الدقيق للأدوات التحليلية الجديدة والصارمة التي تتسم في الوقت ذاته بالمرونة؛ حيث يمكن لها أن تستغل ما تتيحه هذه الأدوات من إمكانات للجمع بينها وبين البيانات الكمية وتنظيمها وتفحصها بتكلفة بسيطة. وسوف نورد في جزء لاحق من هذه الدراسة بعضاً من الأمثلة على الأشكال التي يمكن أن تدعيها هذه الأدوات.

عوالم الاتصال المباشر وغير المباشر:

على الرغم من أن الحوار حول المناهج الكمية والكيفية قد يمثل أحد الخطوط العريضة للمناقشات المتعلقة بالبحث في ميدان الاتصال الإلكتروني، فإن مشكلات جديدة تبرز إلى حيز الوجود. فعلى سبيل المثال، هناك مناقشات محدودة للادعاء القائل: إن مسحاً إلكترونياً لمستخدمي نظام اتصالي إلكتروني ما يمكن أن يتيح وسيلة رخيصة وسريعة لاستخلاص علاقات بين السلوك الاتصالي المباشر على الخط On Line والمتغيرات السوسيوديموجرافية التقليدية (العمر، النوع، مستوى التعليم، دخل الأسرة...). على أن السؤال الملح هنا مؤداه: ما المعنى الحقيقي للمتغيرات السوسيوديموجرافية التي حصل عليها من خلال تطبيق استبانة مقننة على الخط؟ وما الذي يمكن أن يحدث فعلاً، على سبيل المثال، عندما يكشف أحد المشاركين في المسح عن الشخصية الحقيقية لمشارك في أحد المواقع الجنسية، فيخبرنا أن ما يدعيه ذلك الرجل أو تلك المرأة من اسم وعمر ومهنة هو حقيقة الاسم والعمر والمهنة لكل منهما؟

من الحكمة أن نفترض هنا أن الأمر ينطوي على أكثر من مجرد الكشف عن الاسم وبعض الخصائص الاجتماعية الأخرى، فالواقع أن مثل هذه الإجابات قد تساعدنا على فهم العالم الرمزي لمثل هؤلاء الأشخاص، وعرضهم لهوياتهم وذواتهم على الخط وطبيعة قيمهم وعلاقاتهم الاجتماعية. من منظور البحث الإثنوجرافي حول المجتمعات المتخيلة يعد عالم الاتصال على الخط عالماً له كرامته ويؤكد على الحفاظ على السرية والخصوصية. ففي نهاية الأمر، ومن منظور فينومينولوجي، يعد هؤلاء الأفراد وعوالمهم الاجتماعية أشخاصاً فعليين على الرغم من أننا لا نعرف عنهم أي شيء تقريباً سوى الاسم والعمر والوظيفة. وحتى عندما يتوقع التصميم المنهجي للبحث التوصل إلى بعض البيانات التي تشير إلى العالم الواقعي، فليس من المألوف تقبل هذه البيانات دون أن نتذكر دائماً أن الحصول على

معلومات عن حياة شخص ما بوسائل أخرى عدا الاتصال المباشر، أو على وجه التحديد، من خلال الاتصال غير المباشر – على الرغم من أنه قد يبدو أمراً سهلاً وملائماً – يعد دائماً أمراً إشكالياً وإجراء غير مأمون. ليس ببساطة بسبب مخاطر التعرض للخديعة، ولكن لأنه في مثل هذه الحالات، يعظم الوسيط الذي قام بنقل المعلومات من قدر الافتقار إلى السياق الإثنوجرافي الذي أشرنا إليه فيما سلف، كما أنه قد يؤدي إلى حدوث سوء فهم بسبب اختلاف الشفرات الاتصالية.

وأخيراً، لعله من المفيد أن نلاحظ أن أكثر المجتمعات المتخيلة إثارة تتسم أيضاً بافتخارها الشديد بثقافتها المتميزة. في هذا السياق، ينظر أحياناً للباحث الأكاديمي الذي يتوق لإجراء بحثه على أنه شخص متطفل غير مرغوب فيه. ومن هنا تصبح الأمور شبيهة إلى حد بعيد بعملية القيام ببحث ميداني في بيئة صعبة أو معادية أو رافضة للتعاون مع الباحثين مثلما هي الحال في دراسة الجماعات السياسية المتطرفة. ومن هنا يتعين اتخاذ احتياطات خاصة عند الشروع في إجراء دراسات على مثل هذه الجماعات (Diani & Eyerman, 1989).

وتكشف تحليلات القوة وعلاقات المكانة عن جانب آخر من جوانب تعقد العوالم الاجتماعية وثراءها. على الخط. وليس من غير المألوف التقليل من أهمية هذه الجوانب. فهناك تجارب معملية معروفة جيداً تقارن علاقات الوجه للوجه بتلك العلاقات التي تسود في البريد الإلكتروني. وقد وجدت هذه الدراسات أن شبكات الكمبيوتر لها تأثير على تكافؤ المكانات (Dubrovsky et al., 1991). وأكد عدد محدود من الدراسات أن البريد الإلكتروني في إطار التنظيمات الرسمية يقلل من الفوارق الاجتماعية ويرفع من درجة الاتصال عبر الحواجز الاجتماعية (انظر على سبيل المثال؛ Reid, 1998; Sproull & Kiesler, 1986). وقد وضعت الحتمية التكنولوجية الكامنة خلف هذه المواقف الفكرية موضع التساؤل من قبل باحثين آخرين (Baym, 1995a; Mantovani, 1994, 1996; Myers, 1987; Spears & Lea, 1992, 1994) وألقت الضوء على أهمية السياق الاجتماعي الذي يستخدم في إطاره الوسيط الاتصالي.

فضلاً عن ذلك إذا ما ابتعدنا عن تلك التجارب ذات العلاقة الوثيقة بالأبعاد التنظيمية، فقد كشفت الدراسات الإثنوجرافية ذات التوجه الاجتماعي عن وجود إستراتيجيات للجدوى لدى الفاعلين تعد بمنزلة تعويض عن افتقادهم لمعايير بين

شخصية تقليدية يسترشدون بها وتعينهم على إدراك تباين المكانات (Bruckman, 1992; Myers, 1987; Reid, 1991; Thomas, 1996) حيث يتم في التو واللحظة تعرف الملتحقين الجدد بمؤتمر يعقد عبر الكمبيوتر، وينطبق الأمر ذاته على القادة. ويستحوذ على كل من الملتحقين الجدد والقادة ويستخدمون رموزاً تجعل كلاً منهم يختلف عن الآخر حتى ولو كان، كما هو جلي، متخفياً وراء لوحات مفاتيح أجهزة الكمبيوتر الخاصة به. وبالطبع، فإن مثل هذا التفاوت في المكانات قد لا يماثل التفاوت القائم مسبقاً خارج الخط في الحياة الفعلية. فإذا ما كان الأمر كذلك، فلعله يشير إلى أنه يتعين على منظري تأثيرات التكافؤ أن يولوا اهتماماً أكبر لبحث استمرار وجود علاقات القوة التقليدية في نطاق الاتصال الإلكتروني عوضاً عن تعرف التأسيس التلقائي للمعايير والهويات والعلاقات الاجتماعية الجديدة.

التحليل ذو النزعة الطبيعية

تمثل القدرة على النفاذ إلى أقل التكنيكات المنهجية شيوعاً سبباً آخر لوضع إستراتيجيات، مثل المسوح الاجتماعية، في دراسة المجتمعات المتخيلة موضع التساؤل. فمن المعروف جيداً في مجال العلوم الاجتماعية وغيرها، كيف تعدل الظواهر موضوع الدراسة بوساطة القائم بالملاحظة ذاته. وحتى في الحالات التي تستخدم فيها الأساليب الكيفية الرخوة، كما هو الحال في الملاحظة بالمشاركة، تنشأ المشكلات بسبب وجود الباحث في الميدان. وفي هذا المقام يذكر كار وهيلتز (Kerr & Hiltz, 1982) على سبيل المثال، مشكلتين لهما علاقة وثيقة بالملاحظة بالمشاركة واستخدامها في البحوث في مجال الاتصال الإلكتروني: **الإغراق في المحلية Going native وصراع الأدوار Role conflict**، وتشير الأولى إلى استغراق الباحث في الجماعة موضوع الدراسة إلى الحد الذي تفتقد معه الموضوعية، في حين تعني الثانية وجود تعارض بين أهداف الجماعة وأهداف البحث.

وعلى الرغم من أن القيام بالملاحظة المنظمة بصورة مرضية يعد بلا شك أمراً أكثر صعوبة وإشكالية من مجرد القيام بجولة ووصف ما يراه المرء، فلا يزال صحيحاً أنه من الممكن لنا، عند دراسة المجتمعات المتخيلة، أن نستغل بعض الفرص السانحة. ففي العديد من الحالات يمكن القيام بالملاحظة دون إعلام الجمهور موضوع الدراسة. وعلى حين يفرض علينا هذا الموقف أن نأخذ بعين الاعتبار بعض القضايا الأخلاقية الجديدة، إلا أنه يحد في الوقت ذاته، من مخاطر تشويه البيانات والسلوك المدروس الذي يمكن أن ينجم عن الحضور الفيزيقي

للباحث. وعلى الرغم من أن الملاحظة في بيئة اجتماعية طبيعية أكثر ملاءمة من الناحية الاقتصادية مقارنة بالموازنات التي تتطلبها البحوث أو المسوح الإمبريقية، فإن التقاليد البحثية، بخاصة في مجالي علم الاقتصاد وعلم النفس الاجتماعي، تدفع بالباحثين إلى تفضيل الاعتماد على التجارب المعملية التي تطبق من خلال استئجار الأفراد لهذا الغرض. وهؤلاء عادة ما يكونون من طلاب الجامعات (انظر على سبيل المثال؛ Dubrovsky et al., 1991; Kiesler et al., 1984).

غير أن التجارب المعملية في مجال الاتصال الإلكتروني قد طبقت بصفة أساسية على البحوث ذات الأهداف التطبيقية. ومن ثم فإن نتائجها غير قابلة للتعميم على جميع مجالات الاتصال الإلكتروني. ويكمن قصور مثل هذه التجارب فيما أشار إليه عدد من الباحثين المهتمين بدراسة المجتمعات المتخيلة. فعلى سبيل المثال، تلقي نانسي بايم (Baym, 1995a) بالضوء على الفروق بين التصميم التجريبي للبحث (خصائص الجماعات وأعضائها، والأهداف المطلوبة من الجماعة، ونظم الاتصال، والبقاء ذو الطابع المؤقت للجماعة) وتذهب إلى أن هذه القضايا نادراً ما تُتناول، ومن ثم تؤدي إلى تبسيط مفرط ومخل في فهم القوى المؤثرة في عملية الاتصال الإلكتروني. واستناداً إلى ذلك، تنادي بايم بتبني مقاربات منهجية أكثر مرونة وديناميكية، مثل منهجها ذي النزعة الطبيعية الذي انتهجته في دراستها على جماعة الأبناء (Baym, 1992, 1995b). وقد حاول ديفيد مايرز أن يصوغ تجربة مباراتيه Game Experiment بين المستخدمين المنتظمين لنظام لوحة النشرات Bill Boards System، حيث وجد أنه ليس من المفيد، في محاولة الكشف عن العملية الأساسية التي تتشكل من خلال إستراتيجيات الاتصال، اللجوء إلى هذا النوع من التصميم البحثي. ومرجع الأمر في ذلك إلى أن الطبيعة المصطنعة والمحددة سلفاً للتجربة لا تسمح للمستخدمين بالتحكم في السياق بطريقة خلاقة. ومن ثم، فليس من المثير للدهشة أن الأبعاد الاجتماعية ذات العلاقة بالاتصال الإلكتروني لم تبرز إلى السطح في إطار البيئة المعملية. عوضاً عن ذلك، طور مايرز تحليلاً رائعاً يثلج الصدر للكيفية التي تعمل بها آليات التحكم في السياق من خلال الملاحظة بالمشاركة (Myers, 1987).

وفي معرض تحليلهما للتأثيرات المكافئة Equalization Effects وعرضهما لاتجاه الحد من الفروق الاجتماعية (انظر على سبيل المثال Dubrovsky et al., 1991; Kiesler et al., 1984; Sprouall & Kiesler, 1986) ذهب سبيرز وليا إلى القول:

إن من المحتمل أن يكون الشعور بعدم الألفة الذي يعتري العديد من المشاركين في تجارب الاتصال الإلكتروني قد أفضى إلى التوصل لنتائج متميزة. وهما يفترضان أن نتائج التجارب المعملية قد لا تصمد للاختبار الميداني، حيث تتسم العلاقات الاجتماعية في الحياة اليومية بأنها علاقات طويلة الأجل وذات تبعات لها طابع الديمومة النسبية (Spears & Lea, 1994). ولذلك، فإن دعوى روبرت عزرا بارك التي أطلقها في النصف الأول من القرن الماضي، بأن على الباحثين الاجتماعيين أن يمتهنوا ذواتهم في البحث الميداني خارج قاعات الدرس والمعامل، لا تزال لها مصداقيتها.

ويبدو أن بناء الزمن يعد مصدراً متميزاً للأخطاء في التجارب المعملية. فقد أظهر تحليل ما ورائي meta analysis للبحوث السابقة (Walther et al., 1994) أن الحدود الزمنية التي تفترضها ضمنياً ضرورات الضبط في التجربة المعملية يمكن أن تكون مسؤولة عن التوصيفات المتناقضة للاتصال الإلكتروني في التجارب المعملية، وعن تعارض نتائجها مع ما تتوصل إليه الدراسات الميدانية في الواقع الفعلي. وقد قام والثر وزملاؤه بحساب قيمة وسيط الفترة الزمنية التي تسمح به تجارب الاتصال الإلكتروني التي تضع حدوداً على بعد الزمن ووجدوا أنها تبلغ نحو 30 دقيقة. وقد أفضى هذا إلى إثارة تحفظين أساسيين؛ **الأول**: أن التفاعل الاجتماعي في التجارب المعملية للاتصال الإلكتروني يحدث بوقع أبطأ كثيراً من تفاعل الوجه للوجه (Lea et al., 1992; Walther, 1992) والنتيجة المترتبة على ذلك لا بد أن يكون فحواها هو أن الدراسات التي تفرض حدوداً متساوية على بعد الزمن في حالتي التفاعل الإلكتروني وتفاعل الوجه للوجه لا تأخذ بعين الاعتبار التفاعل المحتمل بين الحدود الزمنية والاختلاف في قنوات الاتصال. و**الثاني**: أن السياق المعملي النمطي الذي يطلب في إطاره من الأشخاص أن يؤدوا مهام بعينها في فترة زمنية محددة – حيث لا يكون للأشخاص القائمين بالتجربة سابق علاقة فيما بينهم، كما أنهم لا يتوقعون أن تكون بينهم علاقات في المستقبل – لا يمكن اعتباره، بأي حال من الأحوال، بيئة ملائمة لملاحظة ثراء العلاقات الاجتماعية وتعقدها الذي يسم جماعة لها وجودها الفعلي.

ومن هنا، فإن التأملات حول بناء الزمن يجب أن تستحثنا على أن نأخذ بعين الاعتبار الحدود التي يفرضها القيام ببحوث ذات طابع استاتيكي، تسعى إلى تجنب محاولة الكشف عن فهم ديناميات التطور الوئيد لثقافة متميزة ومناخ اجتماعي لجانب معين من جوانب الحيز السيبرنطيقي. ولذلك، فإن هناك حاجة لبحوث

مستقبلية لا يكتفى فيها بأن تجرى في ظل ظروف معملية، بل إنها لا بد أن تكون بالضرورة تتبعية Longitudinal أيضاً.

أخلاقيات البحث:

يفرض البحث الميداني الذي يجرى بالاستناد إلى أساليب منهجية غير شائعة مشكلات أخلاقية لا يمكن تجنبها. وعادة ما لا يتفق الباحثون حول مبادئ أخلاقية مشتركة فيما بينهم: فالبعض يشعر أن لديه التزاماً أخلاقياً للحصول على موافقة صريحة من الكتاب لكي يستخدموا بيانات سبق أن نشرها كتاب آخرون في أوراقهم البحثية الأكاديمية (انظر على سبيل المثال Marvin, 1995) في حين أن آخرين يقومون بجمع البيانات دون أن يسألوا أصحابها التصريح لهم بذلك. لكن علينا أن نتذكر أن هذه البيانات تعالج بوساطة البرامج الإحصائية دون أن يطلع عليها بشر (Danowski & Edison-Swift, 1985). وفي المقابل، هناك فريق ثالث لا يعلن صراحة ببساطة إذا ما كان قد حصل على إذن باستخدام البيانات (انظر على سبيل المثال Reid, 1991). ومع ذلك، فإنهم جميعاً مهتمون بالحفاظ على خصوصية المستخدمين، ويتخذون تدابير احتياطية مثل تغيير الأسماء، واللجوء إلى استخدام الأسماء المستعارة. ويثبت اللجوء إلى مثل هذه الإجراءات احترام الباحثين للواقعية الاجتماعية للحيز السيبرنطيقي.

ويكشف منتدى الممارسات الأخلاقية العادلة لجمع البيانات في العلوم الاجتماعية في الحيز السيبرنطيقي، الذي قام بتأسيسه أخيراً جيمس توماس والذي أصبح يمثل جزءاً خاصاً من الدورية العلمية «مجتمع المعلومات» The Information Society، عن تنوع المواقف المتعلقة بالمبادئ الأخلاقية للبحث في مجال الاتصال الإلكتروني المباشر على الخط. وفي هذا المقام يمكن تعرف مقاربات أو مواقف وجوبية Deontogical وأخرى غائية Teleological وثالثة بعد حداثية Postmodern (Thomas, 1996).

وقد نوقشت هذه القضايا الأخلاقية باستفاضة أيضاً في إطار «مجموعة بحث مشروع "H" Project H Research Group»، وهي فريق من الباحثين ينتمون إلى عدة بلدان وكثير من الجامعات تعاونوا فيما بينهم في عامي 1993 و1994 على إجراء دراسة كمية عن المناقشات الإلكترونية، وبعد حوار مطول صوتت الجماعة لمصلحة

سياسة أخلاقية تسعى للحصول على تصريحات لتسجيل الرسائل العامة المعروضة على شبكة الإنترنت وتحليلها:

> «نحن ننظر إلى الحوار العام حول الاتصال الإلكتروني المباشر على الخط باعتباره ليس إلا حواراً عاماً. ولا يسعى تحليل محتوى الحوار الذي سيتم خلاله حجب هويات الأفراد والمؤسسات إلى إخضاع موضوعات البحث. إن هذه الدراسة هي أقرب ما تكون إلى دراسة شواهد القبور، والكلمات التذكارية المنقوشة عليها، أو الكتابات التي يخطها العابرون على جدران المباني أو الخطابات المرسلة إلى محرري المجلات السيارة. شخصية؟! بلى؛ خاصة؟! كلا» (Sheizaf Rafaeli, as quoted in Sudweeks & Rafaeli, 1995).

وعلى الرغم من أن هذه الدراسة قد سعت إلى التحليل الكمي للرسائل، فإن سياستها لا يمكن القبول بها بوصفها نسقاً أخلاقياً عمومياً، ومن الجلي أن مجموعة مشروع H قد تبنت موقفاً أخلاقياً معقولاً. فالمحادثات الدائرة على قنوات عامة يمكن النفاذ إليها، والرسائل المعروضة على شبكة الإنترنت ليست مقابلاً موضوعياً للخطابات الخاصة (بالطبع تعد رسائل البريد الإلكتروني مرادفة للخطابات الخاصة). فالأولى ما هي إلا أفعال علنية يقصد بها أن تكون موضوعاً للاستهلاك العام. ولكن هذا لا يعني، بالضرورة، أنها قابلة للاستخدام دون تحفظات، بيد أنها لا تتطلب، بالضرورة أيضاً اتخاذ أية احتياطات زائدة عن تلك التي تتخذ عند دراسة أبعاد الحياة اليومية. وكما يوضح جيمس توماس بجلاء:

> «يعد الاستماع خفية إلى محادثة خاصة، حتى ولو كان هذا في مكان عام، بمنزلة خداع، ومن ثم فهو غير أخلاقي. أما تسجيل محادثة خاصة دون علم أطرافها فهو غير قانوني. (...) ومع ذلك، فإنني إذا ما وضعت كاميرا فيديو لتسجيل أنشطة الناس في حديقة عامة، وإذا ما كان أصدقائي الجالسين جزءاً من المشهد، وإذا ما شرع هؤلاء الأصدقاء فجأة في الصياح بصوت عال بما فيه الكفاية بحيث يمكن تسجيل أصواتهم عن بعد، فإن «هذا» يدخل في نطاق الفعل النزيه». Message posted to the cybetle-l mailing list on, Dec., 14th 1995

التحليل الكيفي للمجتمعات المتخيلة

هل يمكن حقاً لبرنامج كمبيوتر أن يساعد؟

على الرغم من أن المسوح الاجتماعية وعلم الاجتماع الكمي قد عرفا استخدام الكمبيوتر والحزم الإحصائية من زمن بعيد، فإن البحوث الكيفية عادة ما نظرت إلى أجهزة الكمبيوتر بوصفها أدوات بالغة الجمود، لا يمكن أن تكون لها أدنى علاقة بتعقد الظواهر الاجتماعية.

ولنحاول الآن أن نتخيل برنامجاً للكمبيوتر يمكن له:

1- تسجيل الملاحظات الميدانية.

2 – كتابة مدونة بالملاحظات الميدانية.

3 – تحرير الملاحظات الميدانية وتصحيحها ومراجعتها.

4 – تكويد، أي تحديد كلمات دليلية أو علامات مميزة لأجزاء من النص بما يسمح بإمكانية استدعائها فيما بعد.

5 – التخزين: حفظ النص في إطار قاعدة بيانات منظمة.

6 – البحث والاستدعاء: تحديد المقاطع ذات العلاقة بموضوع ما في نص ما يهم الباحث، وجعلها متاحة له.

7 – وصل البيانات Data Linking: أي الربط بين أجزاء من البيانات ذات العلاقة بعضها ببعض، بما يسمح بصياغة فئات تصنيفية، ومجموعات عنقودية أو شبكات معلومات.

8 – كتابة تعليقات تأملية حول بعض جوانب الفكرة أساساً لتحليلات أكثر تعمقاً.

9 – تحليل المضمون: عدد التكرارات، وتتابع مواضع كلمات أو عبارات أو جمل بعينها بحسب ورودها في سياق النص.

10 – عرض البيانات: وضع بعض البيانات المختارة أو المختصرة في صورة مكثفة ومنظمة، كأن يضعها في مصفوفة أو شبكة بغرض تفحصها.

11 – استخلاص النتائج والتحقق منها: حيث يساعد البرنامج المحلل على تفسير البيانات المعروضة واختبارها أو التأكد من النتائج.

12 – بناء النظرية: تطوير تفسيرات نظرية متماسكة مفاهيمياً للنتائج واختبار الفروض.

13 – رسم الأشكال البيانية.

14 – إعداد التقارير المرحلية والنهائية.

هذه هي في الواقع الاستخدامات الأساسية لبرامج الكمبيوتر في الدراسات الكيفية المعاصرة كما لخصها لنا مايلز وهبرمان (Miles & Huberman, 1994). فإذا ما أضفنا بعض الملامح الأخرى مثل: جمع البيانات وحفظها بأساليب أوتوماتيكية أو شبه أوتوماتيكية غير شائعة، وحفظ أية معلومات متاحة (على سبيل المثال، المرسل، والمستقبل والموضوع والتاريخ وتوقيت إرسال الرسالة الإلكترونية) في مجالات منطقية مختلفة لكي يسمح بإجراء عمليات بوولیه Boolea محنكة أحادية أو ثنائية أو متعددة المتغيرات، فضلاً عن قبول أنماط مختلفة من «الكروت» غير المشروعة Wildcards في البحث وإظهار النتائج في سياق قابل للتعريف من جانب المستخدم، وإرسال التكرارات والبيانات الكيفية الأخرى في صور مناسبة للاستخدام بوساطة الحزم الإحصائية الأساسية.

إن برنامجاً للكمبيوتر يمكنه القيام بكل هذه الوظائف سيكون عوناً هائلاً. فكما يلاحظ فايتزمان ومايلز عن حق، أنه «ليس هناك برنامج للكمبيوتر سيقوم بتحليل بياناتك: الكمبيوتر لا يحلل بيانات، البشر هم الذين يحللون». ومع ذلك، فكما أن البنادق تجعل من السهل على البشر أن يقتل بعضهم بعضاً، فإن برنامج كمبيوتر مصمماً تصميماً جيداً يمكن أن يجعل الأمور أكثر يسراً للباحثين لكي يفكروا بقدر أكبر في معنى بياناتهم. وللأسف، وعلى حد علمنا، فإن برنامجاً واحداً يمكنه القيام بكل هذه المهام ليس له وجود حتى الآن. ومع ذلك، فإن هناك برامج تقترب من حدود البرنامج المثالي، يؤدي كل منها عدداً من المهام المشار إليها أعلاه. وأغلب هذه البرامج مصنفة تحت فئة برامج للتحليل الكيفي. وقد بدأت هذه البرامج تجتذب اهتماماً متعاظماً منذ انتشار الكمبيوتر الشخصي الذي أفضى إلى تطورات هائلة في مجال التحليلات الكيفية (Richards & Richards, 1994; Tesch, 1990; Weitzman & Miles, 1995).

وعلى الرغم من أن هذا النوع من البرامج عادة ما يحتوي العديد من الوظائف التي نحتاج إليها، فإن تعبير برنامج التحليل الكيفي له وقع غير موسيقي على الأذن: فنحن نهدف، بصفة عامة، إلى الحصول على المعلومات بمعاونة برنامج كمبيوتر وإلى دراسة المعلومات وتفسيرها في ضوء فهمنا الهرمنطيقي الذي يطور في ميدان البحث، وإلى التوصل لاستخلاصات تركيبية واضحة. ومن هنا، فإننا لا نرى حاجة

لأن نحدد مسبقاً، وإلى الأبد، إذا ما كان تحليل البيانات وعرض النتائج سوف يلجأ إلى استخدام البيانات الكمية أو لا يلجأ إليه. على العكس من ذلك، فإن البرنامج المثالي لتحليل المجتمعات المتخيلة لا بد أن يتيح إمكانية الانتقال بين البيانات الكمية والنصوص والسياقات الوصفية للبيانات بأدنى قدر من المجهود، بحيث يحرر الباحث من القيود التقنية ويتيح أمامه فرصة اختبار إستراتيجيات بحثية مختلفة.

مقترح للتحليل المقارن للمجتمعات المتخيلة:

يستحضر تأكيد دور برامج معينة للكمبيوتر في تنظيم الرسائل والبيانات المسجلة إلى الذهن مخاطر الوقوع مجدداً في براثن رؤية وضعية للبحث العلمي الاجتماعي. فليس من المأمون أن ننظر إلى هذه البيانات بوصفها نوعاً من الواقع الموضوعي المجمد في جهاز كمبيوتر. وتعد الرسائل والبيانات المحفوظة تمثلات للظواهر المترتبة على الاتصال المباشر على الخط كما يدركها المشاركون فيها. والحقيقة أن الواقع الاجتماعي الكامن وراء هذه الظواهر أكثر تعقيداً بكثير، ذلك أن البيانات تفتقر إلى بعدين أساسيين من أبعاد التفاعل الاجتماعي على الأقل (Marvin, 1995). **أولاً**: أنها لا تسجل البعد الدينامي لتناوب الأدوار الذي يمكن أن يحدث لعدة مرات خلال ثوان معدودات أو على مدار عدة أيام. وأحياناً ما يؤدي الوقت المستغرق في طباعة الرسالة أو الهوات الوقتية بينها دوراً رئيساً في تشكيل المزاج الجمعي المحيط بالرسائل. **ثانياً**: أن البيانات تتجاهل الخبرات الواقعية التي يعرفها المشاركون حال جلوسهم أمام لوحات مفاتيح الكمبيوتر في حجراتهم التي يعملون فيها في ظل ظروف مختلفة بمناطق مختلفة من العالم. ويشير ريد (Reid, 1995) إلى بعد آخر يتعلق بأوجه القصور التي تعتري البيانات المأخوذة عن طريق التفاعل بوساطة أسلوب MUD، وهو ما يمكن أن ينطبق على أي تفاعل متزامن عبر الاتصال الإلكتروني المباشر على الخط، وهو أن لغة الاتصال الإلكتروني تعد لغة سريعة الزوال مقارنة بلغة أي نص مكتوب (وهي لذلك تعرف على أنها محادثة مكتوبة)، إذ إنها لا تستهدف هؤلاء الأشخاص غير المنخرطين بصورة مباشرة في التفاعل، كما أنها تفقد جزءاً من معناها ودلالتها عندما تعاد قراءتها فيما بعد من جانب ملاحظين محايدين.

ولهذا السبب يعود المقترح البحثي المشار إليه هنا بجذوره النظرية إلى فكرة فيبر عن الفهم (والمحاولات الخصيبة اللاحقة لإعادة صياغتها مفاهيمياً على مدار القرن الماضي في علمي الاجتماع والأنثروبولوجيا)، كما أنه يسعى إلى استغلال

إمكانات الأدوات التحليلية والنظرية لجمع وتحليل البيانات المسجلة عبر وسائط يمكن قراءتها عن طريق الآلة دون أن يثق في موضوعيتها أو قدرتها على الكشف عن أجزاء من الحقيقة بنفسها. ويتركز انتباهنا في هذا المقام على حالة واحدة، جماعة إخبارية، قائمة بريد، أو مؤتمر BBS أو قناة IRS أو أي شكل آخر لمجتمع متخيل. ويتطلب فهم العمليات الاجتماعية الوثيقة والأنساق الثقافية والرمزية لأية جماعة قدراً كبيراً من الجهد والوقت. وقد قدم لنا البحاثة في مجال الاتصال الإلكتروني المباشر على الخط عدداً وافراً من التوصيفات الرائعة والدقيقة لمسارح الوقائع في نطاق الحيز السيبرنطيقي (انظر على سبيل المثال Baym, 1992; Bruckman, 1992; Meyer & Thomas, 1990; Reid, 1991).

ويمكننا الآن أن نأخذ خطوة أخرى إلى الأمام، لنشرع في التفكير في إستراتيجية بحثية تتبعية مقارنة حول المجتمعات المتخيلة. وقد نوقشت المناهج المقارنة منذ نشأة العلوم الاجتماعية، وأحياناً ما عدت الوسيلة الأساسية للتفسير العلمي. والواقع أن وصف موقف ما (القول بأنه ديموقراطي أو أنه معاد للديموقراطية) يعني مقارنته بمواقف أخرى (Smelser, 1976). ولقد كان اثنان من رواد علم الاجتماع، إميل دوركايم وماكس فيبر، من بين أساطين الدراسات المقارنة.

ويمكن للتحليل المقارن للمجتمعات المتخيلة أن يماثل إستراتيجيات دراسة الحالة التي ارتبطت، في الأغلب، بالأساليب البحثية التي تشيع لها فيبر (Ragin & Zaret, 1983) ولذلك فإنها تتسق تماماً مع النزعة التفسيرية. ومن المحتمل أن يثبُت أن مقارنة عدد من الحالات المختارة بدقة من المجتمعات المتخيلة في سياقات جغرافية، وثقافية، وتقنية مختلفة، تعد بمنزلة منهجية جيدة للتوصل إلى بعض التعميمات الأولية حول السلوك الاجتماعي البشري في الحيز السيبرنطيقي. ويمكن اختبار الفروض التي تطورها الدراسات المتعمقة والتحقق منها في ظل ظروف مختلفة كلياً، بما يسمح للباحثين بالضبط والاستبعاد لأثر المتغيرات ذات العلاقة بالعالم الموجود خارج الخط Off-Line. وسوف يصبح من الممكن في هذه الحالة استخلاص الاعتبارات العامة حول العمليات الأساسية للتعاون في إطار الجماعات الطبيعية على شبكات الكمبيوتر بما في ذلك: تطوير اللهجات المحلية واستخدامها، تنشئة الأعضاء الجدد وقبولهم، وضم غير الأعضاء، وصعود نجم صفوة القادة، واكتساب الصفوة للشرعية وإعادة إنتاجها، الاتفاق على نصوص مكتوبة وغير مكتوبة للمعايير الاجتماعية، والاستجابات

للسلوك المخل، واستمرارية العلاقات التي طورت على الخط في مجالات أخرى من الحيز السيبرنطيقي، بل حتى في عوالم أخرى خارج الخط، وهكذا دواليك.

ويمكن لأفراد فريق دولي غير رسمي من الباحثين أن يستدعي كل منهم فهمه وخبرته عن مجتمع بعينه بما يسمح بتطوير مشروع بحثي تتبعي مقارن عن الاتصال الإلكتروني المباشر على الخط. وتتشكل البيانات في هذا المقام، بصفة أساسية، من الرسائل بالإضافة إلى ملفات الوسائط الاتصالية المتعددة مثل الأشكال والأصوات والرسوم المتحركة التي يمكن جمعها وتنظيمها وتبادلها دورياً وبصفة منتظمة بمعاونة برامج كمبيوتر مصممة بصورة خاصة لهذا الغرض. وسوف يسمح لنا مثل هذا التصميم للبحوث المقارنة المشتركة بأن نأخذ بعين الاعتبار الأطر الاجتماعية لكل حالة، حيث لن يتم العمل هنا على عينات من الرسائل أو البيانات بل على مجمل البيانات المتاحة.

خاتمة

نحو منظور جديد لدراسة المنتجات الثقافية السيبرنطيقية

لا تزال الدراسات الإثنوجرافية للاتصال الإلكتروني المباشر على الخط حتى يومنا هذا تنهض على نصوص حول الواقع المتخيل (Bruckman, 1992; Marvin, 1995). وطبقاً لريد (Reid, 1995) يعد الواقع المتخيل، بصفة أساسية، واقعاً متصوراً بدلاً من كونه خبرة حسية. فضلاً عن ذلك، فإن الأجهزة التي يتطلبها الاستغراق في هذا الواقع المتخيل لا تسوغ قبول عالم المحاكاة بوصفه مجالاً صحيحاً للتورط الانفعالي. فالعوالم النصية ليست حاضنات للخبرات الصوتية والبصرية. وكذا يبدو معقولاً أن نفترض أن الناس في مواقف معينة سوف يستمرون في تفضيل التفاعلات النصية حتى عندما تصبح أشكال أخرى من أكثر التكنولوجيا تقدماً متاحة بشكل واسع في المستقبل.

وتسمح تكنولوجيا راهنة مثل «أنا أراك – أنت تراني» CU-See Me والاتصال التليفوني عبر الإنترنت، للناس بأن يرى ويسمع بعضهم بعضاً من خلال شبكة الإنترنت. إلا أنه، باستثناء رداءة نوعية الصور مقارنة بالفيديو التناظري analog video وأنظمة التليفونات، فإنها تفتقر إلى بعض الملامح المميزة للنص. فالنص يضمن للجميع إمكان أن يقرؤوا، في حين تعد تكنولوجيات الوسائط الاتصالية مناسبة للجماعات ذات الأعداد الصغيرة فقط (Bechar-Israeli, 1995). وعلى الرغم من كل ذلك، فإنه حتى في تفاعلات الوجه للوجه لا يمكننا أن ننصت لأكثر من

شخصين أو ثلاثة على الأكثر في آن معاً. ويعلمنا شكسبير وغيره من الأدباء الكلاسيكيين كيف يمكن للنص أن يعبر عن المشاعر والانفعالات والخبرات والأفكار المعقدة. والواقع أن صناع الأفلام ما زالوا يفضلون في بعض الأحيان – حتى الآن – تصوير أفلامهم بالأبيض والأسود ليثبتوا لنا أن تضيق سعة الموجة عادة ما يساعد على زيادة درجة تركيز الرسالة (Godwin, 1994).

ومع ذلك، لا يمكن للمرء إلا أن يلاحظ أن عالم الاتصال المباشر على الخط يتحرك باتجاه أنظمة الوسائط المتعددة. ومثلما حلت رسومات المغامرات الثلاثية الأبعاد محل ألعاب الفيديو أركيد، فإن هناك العديد من أشكال الرسومات التي تعتمد على تكنيك MUD – حيث يتم إحلال الأوصاف النصية للأشخاص والأماكن بالتمثيلات البيانية – تعد الآن لجذب انتباه عامة الناس (Rossney, 1996).

ولا يمكن للبحث حول المجتمعات المتخيلة أن يتجاهل هذه البيئات التكنولوجية الجديدة التي يمكن لها أن تستولي بالفعل على المهام التي كانت تعد تقليدياً من صميم العمل الأنثروبولوجي الميداني. فالصور الشاشية المأخوذة من عوالم الرسوم البيانية مثل برنامج الفاورلد Alpha world تظهر أرضاً تقطنها شعوب مختلفة وتتسم بمنتجات ذات طرز ثقافية مختلفة: مبان وشوارع وحدائق، ووسائل مواصلات وأدوات أخرى يمكن تحليلها جمالياً وشكلياً. ومن هنا يمكن وصفها والمقارنة بينها باستخدام برامج معينة.

وهكذا فإن البحث في المجتمعات المتخيلة سوف يصبح أكثر شبهاً بالبحث في المجتمعات التقليدية في الحياة الواقعية. وربما تجد بعض النظريات والمفاهيم التي قد تطور بصورة خاصة لدراسة الاتصال الإلكتروني المباشر على الخط، تطبيقات لها في نطاق التيار الرئيس للعلوم الاجتماعية سداداً لدين بحوث الاتصال الإلكتروني للعلوم الاجتماعية الأكثر رصانة ورسوخاً.

المراجع:

Baym, N. (1992, November). Computer-mediated soap talk: Communication, community and entertainment on the net. Paper presented at the Annual Meeting of Speech Communication Association.

Baym, N. (1995a). The emergence of community in computer-mediated communication. In S. Jones (Ed.). *Cybersociety: Computer-mediated communication*. Thousand Oaks: Sage: 138-163.

Baym, N. (1995). The performance of Humor in computer-mediated communication. *Journal of Computer-Mediated Communication*. (On line), 1 (2) Available: WWW URL http://www.usc.edu/dept/annenberg/vol1/issue2/baym.html.

Bechar-Israeli, H. (1995). From <bonehead> to <cloNhEAd>: Nicknames, play and identity on Internet relay chat. *Journal of Computer-Mediated Communication (on line),* 1 (2). Available: WWW URL http://www.usc.edu/dept/annenberg/vol1/issue2/becher.html

Berger, P.L. & Luckmann, T. (1966). *The social construction of reality*. New York: Doubleday & Co.

Bijker, W.E., Hughes, T.P. & Pinch, T.J. (1987). *The social construction of technological systems: New directions in the sociology and history of technology*. Cambridge: MIT Press.

Bruckman, A. (1992) Identity workshop: Emergent social and psychological phenomena in text-based virtual reality. Ph.D. Dissertation, MIT Media Laboratory.

Cicourel, A. (1974). *Cognitive sociology: Language and meaning in social interaction*. New York: The Free Press.

Croft, R. Lea, M. and Giordano, R. (1994). The Social construction of computer use: Stories from the "real world". In S. Howard and Y.K. Leung (Eds.) OZCHI' 94. Proceeding of the Annual Conference of the Computer-Human interface Special interest group of the Ergonomics society of Australia. Downer: ACT, CHISIG-ESA: 33-38.

Danet, B. (1996, February). Text as mask: gendr and idenity on the internet. Paper prepared for the Conference on Masquerade and gendered identity, Italy: Venice: 21-24.

Danowski, J.A. & Edison-Swift, P. (1985). Crisis effects on interaorganizational computer-based communication. *Communication Research,* 2: 251-270.

Diani, M. & Eyerman, R. (Eds.). (1989). *Studying collective action*. Thousand Oaks: Sage.

Dubrovsky, V. Kiesler, S. & Sethna, B. (1991). Equalization phenomena: Status effects in computer-mediated and face-to-face decision making groups. *Human Computer Interaction,* 6: 119-146.

Geertz, C. (1973). *The interpretation of cultures*. New York: Basic Books.

Godwin, M. (1994). ASCII is too intimate. *Wired,* 2. 4: 69-70.

Jaffe, M., Lee, Y., Huang, L. & Oshagan, H. (1995, May). Gender, pseudonyms and CMC: Masking identities and baring souls. Paper submitted to The 45th Annual Conference of the International Communication Association. Albuquerque, New Mexico, USA.

Jones, S. (Ed.). (1995a). *Cybersociety: Computer-mediated communication and community*. Thousand Oaks: Sage.

Jones, S. (1995b). Understanding community in the Information Age. In S. Jones (Ed.). *Cybersociety: Computer-mediated communication and community*. Thousand Oaks: Sage, 10-35.

Kerr, E. & Hiltz, S.R. (1982). *Computer-mediated communication systems: Status and evaluation*. New York: Academic Press.

Kiesler, S., Siegel, J. & McGuire, T. (1984). Social psychological aspects of computer-mediated communication. *American Psychologist,* 10: 1123-1134.

Lea, M. & Spears, R. (1992). Contexts of *computer-mediated communications*. Hemel Hempstead: Harvester Wheat sheaf.

Lea, M. & Spears, R. (1995). Love at first byte? Building personal relationships over computer networks. In J. Wood & S. Duck (Eds.) *Under-Studied Relationships: off the beaten track*. Thousand Oaks: Sage: 197-233.

Lea, M., O Shea, T. Fung, P. & Spears, R. (1992). Flaming in computer-mediated communication. Observations, explanations, implications. In M. Lea (Ed.). *Contexts of computer-mediated communication*. Hemel Hempstead: Harvester Wheat sheaf: 89-112.

Lee, A.S. (1994). Electronic mail as a medium for rich communication: An empirical investigation using hermeneutic interpretation. *MIS Quarterly,* June: 143-157.

Maltz, T. (1996). Customary law and power in internet communities. *Journal of Computer-Mediated Communication.* (On Line), 2 (1). Available: WWW URL http://www.usc.edu/dept/annenberg/vol2/issue1/custom.html

Mantovani, G. (1994). Is computer-mediated communication intrinsically apt to enhance democracy in organization? *Human Relations,* 47(1): 45-62.

Mantovani, G. (1966). *New communication environments: From everyday to virtual*. London: Taylor and Francis.

Marvin, L.E. (1995). Spoof, Spam, Lurk & Lag. The Aesthetics of text based virtual realities. *Journal of Computer-Mediated Communication*. (On Line), 1(2). Available: WWW URL http://www.usc.edu/dept/Annenberg/vol1/issue2/marvin.html.

Matheson, K. (1992). Women and computer technology: Communicating for herself. In M. Lea (Ed.). *Contexts of Computer-Mediated Communication*. Hemel Hempstead: Harvester Wheat sheaf: 66-68.

McLaughlin, M. Osborne, K. & Smith, C. (1995). Standards of conduct on usenet. In S. Jones (Ed.). *Cybersociety: Computer-Mediated Communication and Community*. Thousand Oaks: Sage: 90-111.

Meyer, G. & Thomas, J. (1990). The Baudy world of the byte bandit: A postmodern interpretation of the computer underground. In F. Schmalleger (Ed.). *Computers in Criminal Justice*. Bristol: Wyndham Hall.

Miles, D. & Huberman, A. (1994). *Qualitative data analysis: An expanded Sourcebook*. Thousand Oaks: Sage.

Miles, D. & Slater, D. (2000). *The Internet*. New York: New York University Press.

Miller, S. (1996). *Civilizing cyberspace: Policy, Power, and the information superhighway*. New York: ACM Press.

Mnookin, J.L. (1996). Virtual (ly) Law: The emergence of law in LambdaMoo. *Journal of Computer-Mediated Communication*. (On Line), 2(1). Available: WWW URL http://www.usc.edu/dept/annenberg/vol2/issue1/lambda.html

Mohieddin, M. (2003). *Some social psychological aspects of computer-mediated communication: An empirical investigation*.

Myers, D. (1987). Anonymity is part of the magic: Individual manipulation of computer-mediated communication context. *Qualitative Sociology,* 10, 251-266.

Paccagnella, L. (1996). Language, centrality and crisis in on-line life: A case study on Italian cyber-punk computer conference. Unpublished Manuscript.

Parks, M. R. & Floyd, K. (1996). Making friends in cyberspace. *Journal of computer-mediated communication*. (On Line), 1(4). Available: WWW URL http://www.usc.edu/dept/annenberg/vol1/issue4/parks.html

Ragin, C. & Zaret, D. (1983). Theory and method in comparative research: Two strategies. *Social Forces,* 61. 3: 731-754.

Reid, E. (1991). Electropolis: Communication and community on internet relay chat. Unpublished master thesis, Australia: University of Melbourne.

Reid, E. (1995). Virtual worlds: Culture and imagination. In S. Jones (Ed.). *Cybersociety: computer-mediated communication & community*. Thousand Oaks: Sage, 164-183.

Reid, E. (1998). Hierarchy and power: Social control in cyberspace. In M.A. Smith & P. Bollock (Eds.). *Communities in Cyberspace*. London: Routledge.

Rice, R. (1982). Communication networking in computer conferencing systems: A longitudinal study of group roles and system structure. In M. Burgoon (Ed.). *Communication yearbook 6*. Beverly Hills: Sage, 925-944.

Richards, T. & Richards, L. (1994). Using computers in qualitative analysis. In N. Denzin & Y. Lincolin (Eds.). *Handbook of qualitative research*. Thousand Oaks: Sage: 445-462.

Rossman, G. and Wilson, B. (1994). Numbers and words revisited: Being shamelessly electonic. *Quality and Quantity,* 28: 315-327.

Rossney, R. (1996). Metwworlds. *Wired,* 4. 06: 142-212.

Shwandt, T. (1994). Constructivist, interpretivist approaches to human inquiry.

In N. Denzin & Y Lincolin (Eds.). *Handbook of qualitative research*. Thousand Oaks: Sage, 118-137.

Schwartz, H. & Jacobs, H. (1979). *Qualitative sociology: A method to the madness*. New York: The Free Press.

Smelser, N. J. (1976). *Comparative methods in social sciences*. Englewood Cliffs: Prentice Hall.

Spears, R. & Lea, M. (1992). Social influence and the influence of the social in computer-mediated communication. In M. Lea (Ed.). *Contexts of computer-mediated communication*. Hemel-Hempstead: Harvester Wheat sheaf: 30-65.

Spears, R, & Lea, M. (1994). Panacea or Panopiction? The hidden power in computer-mediated communication. *Communication Research*. 4: 427-459.

Sproull, L. & Kiesler, S. (1986). Reducing social context cues: Electornic mail in organizational communication. *Management Science*. 32, (11): 1492-1512.

Sudweeks, F. Maclaughlin, M. & Rafaela, S. (Eds.). (1997). *Network and netplay; Virtual groups on the internet*. Cambridge: AAAI/MIT Press.

Sudweeks, F. & Rafaeli, S. (1995). How do you get a hundred strangers to agree? Computer-mediated communication & collaboration. In T.M. Harrison and T.D. Stephen (Eds.). *Computer networking and scholarship in the 21st Century University*. New York: SUNY Press: 115-136.

Tesch, R. (1990). *Qualitative research: Analysis types & software tools*. New York: Flamer.

Thomas, J. (1996). Introduction: A debate about the ethics of fair practices for collecting social data in cyberspace. *The Information Society,* 12(2): 107-117.

Walther, J. (1992). Interpersonal effects in computer-mediated interaction: A relational perspective. *Communication Research*. 19(1): 52-90.

Walther, J. Anderson, J. & Park, D. (1994). Interpersonal effects in computer-mediated interaction: A meta-analysis of social & antisocial communication; *Communication Research*. 21(4): 460-487.

Weber, M. (1949). *The methodology of social science*. New York: The free press.

Weitzman, E. & Miles, M. (1995). *Computer programs for qualitative data analysis*. Thousand Oaks: Sage.

قدم في: أكتوبر 2002

أجيز في: فبراير 2004